بسم الله الرحمن الرحيم

براءة السيدة عائشة

من الدم المراق في موقعة الجمل

للدكتور إبراهيم علي شعوط
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الشريعة بمكة المكرمة

ان الذي برأها من افك المنافقين برأهامن افك المؤرخين ، وحفظها من سهام المغرضين ، لان مقامها مقام أم المؤمنين التي قال فيها عروة بن الزبير رضي الله عنه (والله ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولابطب ، ولا بشعر من عائشة ولو لم يكن لعائشة من الفضائل الا قصة الافك لكفى بها فضلا وعلو مجد فانها نزل فيها من القران ما يتلى الى يوم القيامة (١) ٠

موقعة الجمل وتصويرها الخاطىء

بعد أن قتل الثوار أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ووقع أهل المدينة فى حيرة واضطراب ، لم يجدوا نجاة من حيرتهم الا بأن يبايعوا عليا كرم الله وجهه ٠ ولكن روايات التاريخ تضطرب فى هذه الفترة اضطرابا يتلاشى وجه الحق فى ظلامه ، ولا يتضح فيه سبيل يوصل الباحثين الى معرفة الحقيقة بصورة قطعية ٠

ونحن انما نجاهد ــ فى شدة الظلام ــ أن نتحسس الطريق وعيوننا مغمضة كمثل الاعمى الذي يبحث عن باب حجرته المغلقة لينفذ منها الى من يأخذ بيده الى غايته ٠

أول التخطيط

لقد انقسم المسلمون بعد بيعة علي رضي الله عنه الى ثلاث فرق :

---

(١) ارجع الى كتاب « محمد رسول الله » للاستاذ محمد رضا ، ص ٢٢٤ ، ط عيسى البابي الحلبي فى مصر ، وطبقات الحفاظ للذهبي ج ١ ص ٢٧ ٠

فرقة تطالب الخليفة بالتعجيل فى اقامة حد القصاص على قتلة عثمان

وفرقة ترى رأي علي فى مطاولة الثوار ريثما تهدأ الامور ، ويستقر الوضع الجديد بمبايعة جميع الامصار حتى لا يجد قتلة عثمان أنصارا يدافعون عنهم أو يتخذونهم ذريعة لتشغب على الخليفة ·

وفرقة ثالثة لزمت الحياد فى هذه الفتنة لانها لم تستطع أن تتبين وجه الحق حتى تنحاز الى جانبه ·

وفى الوقت الذي كانت المدينة تموج فيه بهذه الفرق وتضطرب فى أمواج الخلاف على تلك الامور ـ خرج جماعة من كبار الصحابة منهم طلحة والزبير بعد أن استأذنا الخليفة فى الذهاب الى البصرة والكوفة ليستنقرا الناس هناك لطرد الثوار ومبايعة علي رضي الله عنه ·

صاحبة الجمل :

يروى ابن الاثير فى كتابه الكامل ـ حول هذه القصة كلاما يحير العقول لانه يصف السيدة عائشة رضي الله عنها بمايبعدها جدا عن التأثر بالصحبة الطاهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول بالنص ـ بعد أن ذكر أن السيدة عائشة كانت قد خرجت من المدينة الى مكة وعثمان رضي الله عنه محصور فى بيته ـ قال : (ثم خرجت من مكة تريد المدينة ، فلما كانت بسرف ـ مكان قريب من مكه ـ لقيها رجل من أخوالها ـ من بني ليث ـ يقال له « عبيد بن أبي سلمه » فقالت له : مهيم ـ يعنى ما وراءك ؟ قال : قتل عثمان وبقوا ثمانيا ـ يعني ثمانية أيام · قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال اجتمعوا على بيعة علي · فقالت : ليت هذه ـ وتريد السماء

انطبقت على هذه ـ وتريد الارض ـ ان تم لصاحبك هذا الامر ، ردوني ردوني ! فانصرفت الى مكة وهي تقول : قتل مظلوما ، والله لأطلبن بدمه · فقال لها : ولم ؟ والله ان أول من أمال حرفه لأنت (يعني أنها أول من أظهر العيب على عثمان) ـ ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلا فقد كفر ـ (ونعثل هذا رجل يهودى كان الثوار يشبهون عثمان به) قالت : انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا وقولي الاخير خير من قولي الاول · فقال لها عبيد ابن أبي سلمه هذا الشعر :

فمنك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام ... وقلت لنا انه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرء ... يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها ... وما من وفى مثل من قد غدر

ويروي ابن قتيبة أن عائشة خرجت باكية تقول : (قتل عثمان رحمه الله !!) فقال لها عمار : « بالامس تحرضين عليه واليوم تبكينه ؟ ! » (١) فانصرفت الى الناس حولها فقالت « أيها الناس ان مكة وقصدت الحجر فتسترت به فاجتمع الغوغاء من أهل الامصار وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل ظلما ونقموا منه استعماله من حدثت سنه ، وقد استعمل أمثالهم من كان قبله » ثم قالت : « فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا سفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام » (٢) فاجتمع الناس ثم ذهبوا الى البصرة ليخرجوا أهلها ضد علي بن أبي طالب ، وقالوا : ان عائشة كانت تحمل فى نفسها كراهية لعلي بن أبي طالب من يوم أن قال رسول الله فى حادث الافك (النساء كثيرا) (٣) ٠

رأينا فى هذا التصوير

ان الذين صوروا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الصورة لم يعرفوها أبدا وانما صوروا امرأة من نساء عصرهم تدفعها العاطفة ويقودها التهور وتستجيب لهواها وأحقادها ٠

لقد نسوا أنها هي أم المؤمنين ، وحبيبة رسول الله ، وموضعها فى قلبه معروف ، وأنها كانت أوثق الناس صلة بسيد الخلق وأرجح أمهات المؤمنين عقلا ، وأوعاهن لتوجيهات رسول الله ولذلك روي فى شأنها مضمون الحديث « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » (٤) ٠

وهي التي يروي هشام عن أبيه كما يروى عروة ابن الزبير عنها قولهم « ما رأينا أحدا من الناس أعلم بالقران ولا بفريضة ولا بحلال وحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا النسب من عائشة ، وقالوا : لو لم يكن لعائشة من الفضائل الا قصة الافك لكفاها فضلا وعلو مجد فانها نزل فيها من القرآن ما يتلى الى يوم القيامة » (٥) ٠

فهل ينبغي لمثلها أن يقع فى تلك الاخطاء الاتية التي ذكرها خصوم الاسلام؟

---

(١) الامامة والسياسة ص ٤١

(٢) راجع كتاب الكامل لابن الاثير ج ٣ ، ص ١٠٥ ، والامامة والسياسة ص ٥٢ ٠

(٣) كتاب محمد رسول الله للاستاذ محمدرضا ص ٢٢٤ ، وعصر الخلفاء الراشدين للمرحوم محمود فياض ص ٣١٢ ٠

(٤) الحميراء : تصغير حمراء وهي المرأة التي فى لونها حمرة ٠

(٥) طبقات الحفاظ للذهبي ج ١ ص ٢٧

أولا : تتناقض مع نفسها فى الحكم على عثمان رضي الله عنه فتأمر أولا بقتله ، ثم اذا قتل تكون فى طليعة من يطالب بدمه ؟ ! هل هذه أخلاق أمهات المؤمنين ؟ ! ثم اذا لاحظ عليها الناس هذا الاضطراب والتناقض لجأت الى عذر (١) أقبح من الذنب فتقول : (لقد قلت وقالوا وقولي الاخير خير من قولي الاول) ..

ونحن نقول : سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم على أم المؤمنين .

ثانيا : لقد شاع وذاع فى كتب التاريخ أن الذي دفع أم المؤمنين عائشة الى وقوفها فى صف خصوم علي بن أبي طالب هو حقدها عليه من يوم أن وقف يهون أمر حادث الافك على رسول الله ويقول له : « النساء غيرها كثير » فمن يومها وهي لا تذكر عليا باسمه أبدا من شدة الحقد عليه ، فاذا أرادت أن تخبر عن خروج رسول الله مع علي بن أبي طالب : قالت خرج رسول الله ومعه رجل اخر .

وهذا كله يبدو فيه تجاهل مقام السيدة عائشة وتربيتها المحمدية ، كما يبدو فيه خروجها عن تصرفات المطهرة قلوبهم من الحقد الى عامة الناس فى العصور البعيدة عن عصر النبوة .

ونحن قد وجدنا صفة أم المؤمنين واضحة جدا فى معاملتها لحسان بن ثابت الذي خاض فى تلك الفتنة وتحمل وزرها حتى أقام عليه الرسول حد القذف .. فيروي الشيخ أبو الأعلى المودودي فى تفسير سورة النور فيقول : « وكانت عائشة رضي الله عنها دوما تبدى عطفها على حسان بن ثابت ولا تقابله الا بالاحسان والتواضع وتلقي اليه بالوسادة عندما يدخل عليها ، مع أن حسان كان من الذين أذاعوا حديث الافك ، ولما أن ذكرها بعض الناس مرة بما فعل حسان . قالت : « انه كان يدافع عن رسول الله » وقالت مرة أخرى « ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان ولا تمثلت به الا رجوت له الجنة » (٢) .

فاذا كان هذا هو موقفها من حسان الذي خاض مع الخائضين وقالت فى شأنه : انه كان يدافع عن رسول الله ، أفلا يكون تقديرها أشد وأكبر لعلي بن أبي طالب ؟ الذي كان يريد ابعاد الحزن عن فكر الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

---

(١) كتاب الكامل جـ ٣ ص ١٠٥

(٢) تفسير سورة النور لابي الاعلي المودودي ص ١٤٧ .

ولا شك أن عائشة كانت تحب من يحب رسول الله وتضعه فى مكان التقدير والاعزاز فأي فرية متهافتة مثل هذه الفرية بعدما عرفنا صفحها عن حسان بن ثابت وبعدما عرفنا صفح والدها عن مسطح بن أثاثة ـ مروج حديث الافك وهو أحد أقارب أبي بكر ، وكان ينفق عليه أبو بكر من ماله ، فلما خاض فى الافك مع الخائضين حلف أبو بكر ألا ينفق عليه بعد ذلك ، ولكن لما نزل قوله تعالى « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » (١)

فلما سمعها أبو بكر قال بكل قلبه :(اني لأحب أن يغفر الله لي) وأعطى مسطحا أكثر مما كان يعطيه قبل حادث الافك ·

فهل السيدة عائشة ـ على فرض أن ما قاله علي أساءها ـ لم تسمع الآية التي أثرت فى والدها وهي قوله تعالى « ألاتحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» ؟ لاشك ـ والولد سر أبيه ـ أنها سمعتها وآثرت أن يغفر الله لها بعفوها عن المسىء بدليل عفوها عن حسان بن ثابت · فكيف نتصور أنها تبقى فى نفسها ـ بعد ذلك ـ حقدا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد مضى على حادث الافك زمن طويل ؟ ·

لم يبق بعد ذلك الا أن نؤمن دائما بأن عائشة أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين أبعد ما تكون عما نسب اليها فى هذه الدعوى بالنسبة لعلي رضي الله عنهما ·

لماذا خرجت السيدة عائشة الى البصرة ؟

بعد الذي ذكرناه مما ينبغي لام المؤمنين من السداد فى الرأي والحكمة فى التصرف ـ بعد هذا ـ يخطر فى بال المتتبع للحوادث هذا السؤال : فلماذا خرجت أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير الى البصرة اذا لم يكن هدفهم المطالبة بدم عثمان بدافع البغض لامير المؤمنين علي بن أبي طالب ؟

والجواب على هذا السؤال لا نعتمد فيه على العاطفة والاستنتاج ، ولا نستغل حبنا لأم المؤمنين رضي الله عنها ، ولانستعمل تقديرنا للصحابيين الجليلين ، طلحة والزبير اللذين بشرهما رسول الله بالجنة ، لا نعتمد على شىء من ذلك ـ وانما نضع أمام عين القارىء نصوصا وأخبارا رواها المؤرخون فى غمار هذه الفتنة ، ولكن هذه الروايات ، وتلك الاخبار تضاءلت وغطاها ركام الاغراض الخبيثة وما غمر كتب التاريخ من شائعات كانت مرتعا خصبا لخيال القصاص والشعراء ومن ينتحلون لانفسهم خفة الظل فى مجالس التظرف والمنادمة ·· اقرأوا معي ـ ان شئتم ـ هذه الروايات :

(١) سورة النور

١ ـ يروي القاضي ابن العربي فى كتابه « العواصم من القواصم » (١) انه يحتمل أنهم خرجوا ليتمكنوا من قتلة عثمان ٠

٧ ـ يروي هذا المرجع نفسه : أنه يمكن أن يكونوا قد خرجوا فى جمع طوائف المسلمين وضم نشرهم وردهم الى قانون واحد حتى لا يضطربوا فيقتتلوا ، وهذا هو الصحيح لا شيء سواه ، وبذلك وردت صحاح الاخبار (٢) ٠

٣ ـ يروي ابن حجر فيقول : « ان أحدا لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليا فى الخلافة ولا دعوا الى أحد منهم ليولوه الخلافة (٣) ٠

٤ ـ يروي الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيقول : « وبلغ الخبر عائشة ـ وهي حاجة ـ ومعها طلحة والزبير فخرجوا الى البصرة يريدون الاصلاح بين الناس واجتماع الكلمة (٤) ٠

٥ ـ روى ابن الاثير : « أن عثمان بن حنيف أمير البصرة أرسل الى أم المؤمنين رجلين يسألانها عن سبب مسيرها فقالت : والله ما مثلي يغطى لبنيه الخبر ٠ ٠ ان الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدثوا فيه وآووا المحدثين ، فاستوجبوا لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوا وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء ، وما الناس فيه وراءنا ، وما ينبغي لهم من اصلاح هذه القصة ، وقرأت : « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (٥) ٠

٦ ـ من أوضح الادلة على أن أم المؤمنين لم تكن تقصد بخروجها تفريق الجماعة ولا شفاء حقد بينها وبين علي ٠ ان الذين طلبوا منها الخروج ـ وهم طلحة والزبير ومن معهما ـ كانوا يعلقون آمالا على خروجها فى حسم النزاع وجمع الشمل ٠ وفى ذلك يقول ابن العربي : فخرج طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم رجاء أن يرجع الناس الى أمهم فيراعوا حرمة نبيهم واحتجوا عليها ـ عندما حاولت الامتناع ـ بقول الله تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس » ثم قالوا لها : ان النبي قد

---

(١) العواصم من القواصم ص ١٥١
(٢) نفس المرجع والصحيفة
(٣) فتح الباري ج ١٣ ص ٤١ ـ ٤٢
(٤) مختصر سيرة الرسول للامام محمد بن عبد الوهاب ص ٢٤١
(٥) كتاب الكامل ج ٣ ص ١٠٧

خرج فى الصلح وأرسل فيه . قال ابن العربي « فرجت المثوبة واغتنمت الفرصة ، وخرجت حتى بلغت الاقضية مقاديرها » (١)

٧ ـ ويقول ابن العربي فى معرض الرد على من قال : ان أهل البصرة لما عرفوا بمجيىء عائشة وطلحة والزبير خرجوا ليقاتلوهم وعلى رأسهم « حكيم بن جبلة » قال ابن العربي فى شأن حكيم بن جبلة :عن أي شىء كان يدافع ؟ ! وهم ما جاؤا مقاتلين ولا ولاه وانما جاءوا ساعين في الصلح راغبين فى تأليف الكلمة فمن خرج اليهم ودافعهم وقاتلهم دافعوا عن مقصدهم كما يفعل فى سائر الاسفار والمقاصد (٢)

٨ ـ يروي الطبرى : ان عليا عندما وصل الى البصرة أرسل القعقاع بن عمرو ليقوم بالوساطة بينه وبين أصحاب الجمل فلما رجع القعقاع أخبر أنه قد استجاب له أصحاب الجمل ، وبعث علي الى طلحة والزبير يقول : ان كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر فى الامر .. فأرسلا اليه : انا على ما فارقنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس (٣) .

٩ ـ يقول الحافظ بن كثير : « واطمأنت النفوس وسكنت فرجع كل فريق بأصحابه من الجيشين فلما أمسوا بعث علي (عبدالله بن عباس) اليهم وبعثوا (محمد ابن السجاد) الى على ، وعولوا جميعا على الصلح ، وباتوا ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط قد أشرفوا على الهلكة وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على انشاب الحرب فى السر (٤)

١٠ ـ ويقول ابن الاثير (٥) : ان الاشتر النخعي (٦) قال : « قد عرفنا رأى طلحة والزبير فينا وأما علي فلم نعرف رأيه الى اليوم ورأى الناس فينا واحد فان يصطلحوا مع علي فعلى دمائنا ،فهلموا بنا نثب على علي وطلحة فنلحقهما بعثمان فتعود الفتنة التي يرضى فيها منا بالسكون ـ يعني أنهم يفلتون بها من الحد فى دم عثمان (٧) .

(١) العواصم من القواصم ص ١٥٢
(٢) المرجع السابق ص ١٥٤
(٣) الامم والملوك جـ ٥ ص ١٦٩ والكامل لابن الاثير جـ ٣ ص ١١٩ ـ ١٢٠
(٤) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ص ٢٣٩
(٥) الكامل جـ ٣ ص ١٢٠
(٦) الاشتر النخعي هو من قتلة عثمان الذين لا يريدون الصلح لان رقابهم ثمن هذا الصلح
(٧) الكامل لابن الاثير جـ ٣ ص ١٢٢

هكذا كانت فكرة الصلح هي المسيطرة على عقول القوم من الطرفين كما كانت هدفهم الذي يهدفون اليه حتى فى وقت استعدادهم للقتال ..

١١ ـ وفى اثناء تنظيم الجيوش قال ابن الاثير (١) « ولما خرج طلحة نزلت مضر جميعا وهم لا يشكون فى الصلح ونزلت ربيعة فوقهم وهم لا يشكون في الصلح ونزلت اليمن أسفل منهم وهم لايشكون فى الصلح ، ثم يقول : فكان بعضهم يخرج الى بعض لا يذكرون الا الصلح وكان أصحاب علي عشرين ألفا وخرج علي وطلحة والزبير فتوافقوا فلم يروا أمرا أمثل من الصلح ووضع الحرب فافترقوا على ذلك » .

١٢ ـ اقرأوا أيضا رد السيدة عائشة على السيدة أم سلمه حيث قالت لها : ما أقبلني لوعظك وأعلمي بنصيحتك ،وليس مسيرى على ما تظنين ، ولنعم المطلع مطلع فزعت فيه الي فئتان متناحرتان (٢) .

١٣ ـ لقد أدرك المفسدون أن الصلح سيسلم رقابهم لسيف أمير المؤمنين ، وانتهزها دعاة السوء من منافقي اليهود الذين ما تزال صدورهم تغلي بالحقد على الاسلام والمسلمين ووجدوا فيها ـ فرصة العمر ـ فوقف عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء يقول : « يا قوم ان عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم فاذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ، ولا تفرغوهم للنظر ، فمن أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ـ أي عن الصلح ـ ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما يكرهون فأبصروا الرأى وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون » .

الحلقة المفقودة

هي التي يمكننا أن نقرأها من بين السطور المضطربة فى هذه الحقبة المظلمة فى كتب التاريخ ، اذا انتزعنا أنفسنا من عصرنا هذا ، وعشنا مع هؤلاء القوم في حقبتهم وبيئتهم التي لا يزال يتلألأ فى جوانبها نور النبوة وضياء الايمان .

كان المحور الذي يدور حوله الخلاف بين علي رضي الله عنه وكل المخالفين عليه هو أمر قتلة عثمان ، فكل المسلمين كانوا مجمعين على وجوب اقامة الحد وتنفيذ القصاص فى قتلة عثمان ، وأن الذي تولى الحديث عن المقتول هو معاوية بن أبي سفيان ـ باعتباره ولي الدم ـ ولما طلب اليه أن يبايع عليا لم يمانع فى البيعة ولكنه اشترط أولا تسليم قتلة عثمان أو اقامة الحد عليهم .

ويؤيدنا فى ذلك ما رواه امام الحرمين فى كتابه « لمع الأدلة » حيث يقول : « ومعاوية وان قاتل عليا فانه لا ينكر امامته ، ولا يدعيها لنفسه ، وانما كان يطلب قتلة عثمان رضي الله عنه ظانا أنه مصيب وكان مخطئا » (٣) .

(١) نفس المرجع
(٢) الامامة والسياسة ص ٥٧
(٣) راجع كتاب (لمع الادلة) لامام الحرمين عبد الملك الجويني ص ١١٥

ولم يسبق الى ذهن أحد من المسلمين في المدينة أن هذا الطلب اتخذ ستارا للوصول بمعاوية الى الخلافة ، ولم تكن فكرة قميص عثمان قد اتخذت مثلا لمن يريد أمرا ثم يتعلل بغيره للوصول اليه ، وانما كان مفهوم هذا الطلب صريحا انه اقامة حد من حدود الله لا ينبغي التفريط فيه من الرعية ولا من الراعي .

وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يرى هذا الرأي ولا ينكره ، وانما شرح أسباب تأجيل النظر فيه حتى يتم له الامر وتبايعه الامصار الاسلامية كلها وحينئذ يستطيع أن ينفذ حكم الله فى المجرمين ، فقال فى أول يوم من بيعته عندما سأله طلحة والزبير ومن معهما من الصحابة فى أمر قتلة عثمان : يا اخوتاه ، لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ ! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت اليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تجدون؟ قالوا : لا ، قال : فوالله لا أرى الا رأيا ترونه – ان شاء الله – ان هذا أمر جاهلية – يعني الثأر – وان لهؤلاء مادة فاهدأوا عني حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق (١) .

كان هذا رأى علي بن أبي طالب والظروف التي أحاطت بالمدينة وقتئذ وتمكن الثوار من الدفاع عن أنفسهم بينما كانت وجهة نظر معاوية والمطالبين بدم عثمان أنه لابد من القصاص أولا ثم البيعة بعد ذلك . فأصبح الرأيان لا يلتقيان أبدا .

وفى الامة حرص شديد على الوحدة وجمع الصفوف . فماذا يكون الحل اذن ؟ وكلا الطرفين مصر على رأيه لا يتزحزح عنه قيد شعره ؟ ومع هذا التعقيد والاصرار كان يبدو للناس سلامة رأى الفريقين ، فالذين يسمعون من علي يقتنعون بسلامة رأيه ، والذين يلتقون بمعاويه يعتقدون أن الحق معه .

فما هو المخرج من هذه القضية التي يسلم الناس بسلامة طرفيها ؟؟

اذن لابد من التماس الحل الذي يمكن أن يلتقي الطرفان فى دائرته ، لقد بحث هذا الامر قطبان من أقطاب الاسلام بشرهما رسول الله بالجنة هما « طلحة بن عبيد الله » و « الزبير بن العوام » فوجدا الحل عند أم المؤمنين حبيبة رسول الله ، وأقرب نسائه الى قلبه ، والمصدر الصادق الذي يثق المسلمون به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأصبح الامر فى نظر طلحة والزبير وقد ذللت كل العقبات فى طريقه اذا تولته أم المؤمنين عائشة بنفسها ، فمتى علم المسلمون أن أمهم يهمها وحدة المسلمين ، ويغضبها تفرقهم ، وأن الوحدة لا يمكن أن تتم الا

(١) راجع كتاب (الكامل) ج ٣ ص ١١٩ ، و « الحقبة المثالية فى الاسلام » للدكتورين ابراهيم شعوط ومحمود زياده ص ٣٨١ ، الدار القومية .

اذا تم القبض على المجرمين الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه سواء كانوا في البصرة أو فى الكوفة أو فى مصر ، وأن أم المؤمنين اذا نادت بهذا فستجد من المسلمين جوابا واحدا هو القبض فورا على كل المتهمين بقتل عثمان ٠

عند ذلك تكون المشكلة قد انحلت من أساسها ، وتكن قد أعفت عليا من حرب داخلية كان يخشاها ، وفى الوقت نفسه حققت رغبات معاوية وبني أمية جميعا فيعود المسلمون فى سيرهم الطبيعي الذي كانوا يسيرونه فى عهد عمر وعهد عثمان ٠

الله يشهد أن هذا الهدف أو قريبا منه هو الذي ينبغي أن تشد أم المؤمنين اليه رحالها من مكة الى البصرة ، وكانت تعتقد أنها – وهي تتمثل برسول الله في تحقيق المعنى المقصود من الآية الكريمة :« **لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس** »كانت تعتقد أنها انما تقوم بواجبها كاملا فى القضاء على خلاف عجز المسلمون عن التغلب عليه ، كما كان طلحة والزبير كذلك يعتقدان أنهما تقربا الى الله باقناع أم المؤمنين ليجتمع الشمل تحت رايتها ، ويستجيب المسلمون لها تقديسا لحرمة رسول الله فى شخص أم المؤمنين ٠

ويؤيدنا فى ذلك ويقوي هذا الاتجاه ما رواه ابن الاثير من أن القعقاع بن عمرو حين بعثه علي رضي الله عنه الى البصرة وجد هناك أم المؤمنين فسألها قائلا : أي أمه ، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟؟ فقالت : أي بني : الاصلاح بين الناس ٠
قال : فابعثي الى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فبعثت اليهما فجاءا ، فقال لهما : اني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت : الاصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : بل متابعان ٠ قال : فأخبراني ما وجه هذا الاصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح ٠ قالا : قتلة عثمان فان هذا ان ترك كان تركا للقرآن » (١) ٠

كيف فسد الصلح ؟

لما نجحت سفارة القعقاع بن عمرو ،واقتنع الطرفان بوجوب الصلح واستبشر المسلمون ببوادر الاتفاق ، وآمن طلحة والزبير والسيدة عائشة أن الله قد نجى المسلمين من شرور حرب طاحنة ، وبات المسلمون ليلة لم يبيتوا مثلها (٢) لما أحسوا به من نجاح الصلح وتطهير صفوفهم من الشياطين ٠٠

– ولكن المتهمين بقتل عثمان رضي الله عنه والمشتركين فى الفتنة قد أصابهم الغم وأدركهم الحزن من اتفاق الكلمة ، وجمع الشمل ، وأيقنوا أن الصلح سيكشف أمرهم ويسلم رقابهم الى سيف الحق وقصاص الخليفة (٣) فباتوا يدبرون أمرهم

---

(١) أنظر كتاب الكامل لابن الاثير ج ٣ ، ص ١١٩
(٢) ابن الاثير – الكامل ج ٣ ص ١٣٣
(٣) نفس المرجع ج ٣ ص ١٢٠

بليل شديد الظلمة ، حالك السواد ، فلم يجدوا سبيلاً لنجاتهم ، الا بأن يعملوا على افساد الصلح ويفرقوا صفوف المسلمين فيعملوا عملا يبلبل الافكار ويجعل كل فريق من طرفي النزاع يسيء الظن بالفريق الاخر ٠

وقال ابن الاثير فى كتابه الكامل : « وبات الذين أثاروا أمر عثمان فى شر ليلة ـ وقد أشرفوا على الهلكة ـ وباتوا يتشاورون ليلتهم فاجتمعوا على الحرب فى السر ، فغدوا مع الغلس ، وما يشعر بهم أحد ـ فخرجوا متسللين ـ وعليهم ظلمة ـ يقصد مضرهم الى مضرهم وربيعتهم الى ربيعتهم ، ويمنهم الى يمنهم فوضعوا السلاح بغتة فيهم فثار أهل البصرة وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم الذين أتوهم ، وبلغ طلحة والزبير ما وقع من الاعتداء على أهل البصرة فقالا : ما هذا ؟ قالوا : طرقنا أهل الكوفة ليلا فقال طلحة والزبير : قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء وأنه لن يطاوعنا ٠

وفى هذا الوقت ـ حسب تخطيط المفسدين ـ ذهبت فرقة أخرى تحت جنح الظلام ففاجأت معسكر علي بالكوفة ، فلما بلغ عليا رضي الله عنه هذا الخبر قال : ما هذا ؟ قال له أصحابه من أهل الكوفة : ما شعرنا الا وقوم من أهل البصرة قد بيتونا ٠ فقال علي نفس العبارة التي قالها طلحة والزبير وهي : « لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء وأنهما لم يطاوعانا » (١) ٠

وخفيت حقيقة المؤامرة على كلا الفريقين وظن كل منهما الشر بصاحبه ونجح العاملون فى الظلام ، ونجحت خطتهم فى افساد الصلح واراقة الدماء ، وطاشت عقول القوم ، واختلطت عليهم الامور ، ولم يعرف كل واحد منهما أين هو ؟ ولا كيف يصنع ؟ سوى أن يقابل العدوان بالعدوان ، وصار المسلمون يحصد بعضهم بعضا فى فتنة عمياء لا يعرف أحدهم كيف بدأت ولا متى تنتهي؟

هذا هو السير الطبيعي للاحداث ، ولكن الدكتور طه حسين يخالف فى تصديق هذه الرواية ويدعي أنها تخالف طبيعة الاشياء ـ التي يعرفها هو ـ فيقول : ولا يسيغها الا أصحاب السذاجة (٢) ٠

حيرة العقلاء

من العبارات التي نقلت عنهم نـدرك سلامة فطرتهم ، وقوة عقيدتهم ، وحرصهم على التماس الخير ، وبعدهم عن الشر ، فنجد أن الصحابة رضي الله عنهم حينما عميت عليهم وجوه الحق ، واشتبهت أمام أعينهم الطرق وقفوا حيارى أمام هذه الاحداث ، يقول كل واحد منهم : يارب عرفني طريق الحق حتى أسلكه ، واكشف لي عن طريق الباطل حتى أتجنبه

---

(١) كتاب الكامل جـ ٣ ص ١٣٣ ـ ١٦٤ ط منير

(٢) كتاب علي وبنوه للدكتور طه حسين ص ٤٣ ط دار المعارف

رأي الزبير فى هذه الفتنة

قال يوما لمولاه : « انها الفتنة التي كنانتحدث عنها • فقال مولاه : أتسميها فتنة وتقاتل فيها ؟ ! قال الزبير : ويلـك ، اننانبصر ولا نبصر ، ما كان أمر قط الا وأنا أعلم موضع قدمي فيه غير هذا الامر فاني لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر » ؟؟ (١)

رأي طلحة فى هذه الفتنة

قال علقمة بن أبي وقاص الليثي : « لما خرج طلحة والزبير وعائشة ، رأيت طلحة وأحب المجالس اليه أخلاها ــ وهو ضارب بلحيته على صدره ، فقلت : يا أبا محمد ، أرى أحب المجالس اليك أخلاها ، وأنـت ضارب بلحيتك على صدرك ، ان كرهـت شيئا فاجلس • قال : فقال لي : يا علقمة بينما نحن يد واحدة على من سوانا ، اذ صرنا جبلين من حديد يضرب بعضنا الاخر انه كان مني فى عثمان شىء ليس توبتي الا أن يسفك دمي فى طلب دمه » (٢) •

رأى أبي موسى الاشعري

قال أبو موسى لما جاءه من يطلب منـه الانضمام الى علي بن أبي طالب قـــال « هذه فتنة صماء ، النائم فيها خير مـن اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، والراكب خير من الساعـــي • فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا سيوفكم ، وانصلوا الأسنة ، واقطعـــوا الاوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد حتـى يلتئم هذا الامر وتنجلي الفتنة » (٣) •

ماذا نقصـــد ؟

نقصد بالروايات التي أوردناها هنا أن نبين الى أي حد كانت الامور مشتبهة على صحابة رسول الله ، وكل فريق منهم كان يعمل باجتهاده ، فالذين استقام فى أذهانهم أن الطرفين متساويان لا يرجح أحدهمـا الاخر ، آثروا أن يقفوا على الحياد مثـل أبي موسى الاشعرى رضي الله عنه ، وأن الذين بدا لهم الحق فى جانب علـــــي رضي الله عنه وقفوا معه احقاقا للحق ،وايمانهم بأنهم مسؤولون أمام اللـــه ان تخلفوا عن نصرة علي ، مثل ابن العباس وعمار بن ياسر ، وان الذين اعتقدوا ان الحق فى جانب المطالبين بدم عثمان رضي الله عنه واقامة الحد عليهم أولا ــ حاربوا ضد علي بن أبي طالب بايمان وصدق لا بدوافع المنافع الذاتية ، ولا شفاء لضغائن شخصية •

---

(١) راجع كتاب الكامل ج ٣ ص ١١٣ ط منير
(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١١٣
(٣) نفس المرجع ج ٣ ص ١١٦

شهادة علي بن أبي طالب للفريقين

وهذه رواية تبين لنا رأى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فى حقيقة القتال في هذه الفتنة ، وفى مصير القتلى فى تلك المعركة ، مما يدل على صدق ايمان المقاتلين واعتقادهم جميعا أنهم يجاهدون فى سبيل الله ٠

قال ابن الاثير فى معرض الحديث عن وصول علي بن أبي طالب الى البصرة ما يأتي (١) « قام علي فخطب الناس ، فقام اليه « الاعور بن بنان المنقري » فسأله عن اقدامهم على البصرة ، فقال له علي : الاصلاح ، واطفاء الثائرة ، لعل الله يجمع شمل هذه الامة بنا ، ويضع حربهم قال : فان لم يجيبونا ؟ قال علي : تركناهم ما تركونا ٠ قال الاعور : فان لم يتركونا ؟ قال علي : دفعناهم عن أنفسنا ٠ قال الاعور : فهل لهم من هذا مثل الذي عليهم ؟ قال علي : نعم ٠٠ وقام اليه « أبو سلامة الدلاني » فقال لعلي : أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم ان كانوا أرادوا الله بذلك ؟ قال علي نعم ٠ قال : أترى لك حجة بتأخير ذلك ؟ قال علي : نعم ان الشيء اذا كان لا يدرك فان الحكم فيه أحوطه وأعمه نفعا ٠ قال أبو سلامة : فما حالنا وحالهم اذا ابتلينا غدا ؟ قال علي : اني لأرجو ألا يقتل منا ومنهم أحد نقى قلبه لله الا أدخله الله الجنة » ٠

أعمال علي تؤيد كلامه

تحدثنا كتب التاريخ – مجمعة هذه المرة – أنه لما انتهت معركة الجمل أتى علي الى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقال : كيف أنت أمه ؟ قالت : بخير ٠ قال : يغفر الله لك ٠ قالت : ولك (٢) ٠

كما تحدثنا كتب التاريخ أيضا أن أم المؤمنين قالت للناس بعد موقعة الجمل : « انه والله ما كان بيني وبين علي في القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها – أقارب زوجها – وانه على معتبتي لمن الاخيار ٠ فقال علي : صدقت وبرت ، وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والاخرة » (٣) وأيضا روت المصادر التاريخية أنه لما حانت ساعة رحيل أم المؤمنين من البصرة ودعها سيدنا علي بنفسه وسار بجانب الهودج حتى خارج المدينة ، وسير معها أولاده مسيرة يوم كامل (٤) ٠

كذلك نجد أن عليا رضي الله عنه اشتد به الحزن على جميع القتلى لدرجة أنه كان

(١) راجع كتاب الكامل ج ٣ ص ١٢١ ط منير
(٢) راجع كتاب الكامل ج ٣ ص ١٣٠
(٣) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٢٠٥
(٤) راجع الحقبة الثالية للدكتورين ابراهيم شعوط ومحمود زياده ص ٢٠٥

يظهر توجعه وفجيعته على القتلى ويترحم عليهم وكان يقول : « ان من قاتل فقتل وهو لا يريد بقتاله الا الحق ولا يبغى الا رضا الله فهو شهيد · ولما جيء له بسيف الزبير ، دعا على من قتله ، وذكر مواقف الزبير فى يوم أحد تأبينا له ، واظهارا لمكانته وفضله » ·

ويقول ابن الاثير « انه مر على طلحة بن عبيد الله وهو صريع فقال : لهفي عليك يا أبا محمد ، انا لله وانا اليه راجعون ، والله لقد كنت أكره أن أرى قريشا صرعى ·· أنت والله كما قال الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   اذا ما هو استغنى ويبعده الفقر (١)

ولقد تصرف علي رضي الله عنه في غنائم موقعة الجمل تصرفا يدل على أن هذه لم تكن حربا بين مسلمين وغير مسلمين ، انما هي حرب بين فريقين من فجمع كل المخلفات في المعركة وبعث بها المسلمين يرى كل منهما أن الحق فى جانبه الى المسجد فى البصرة وقال : من عرف لنفسه شيئا فليأخذه الا سلاحا كان في الخزائن عليه سمة السلطان (٢) وكذلك صلى على جميع القتلى من الفريقين وجمع كثيرا منهم فى قبر كبير ، مما يدل على ايمانه بأنهم جميعا كانوا يقاتلون تعبدا لا عنادا ولا شهوة ، ولا شفاء خصومة قديمة أو حقد دفين كما يريد خصوم الاسلام أن يصوروهم جميعا ·

ماذا نستطيع أن نفهمه من كل ما مضى ؟

نفهم ان أم المؤمنين كانت قد خرجت للصلح بعد أن شرح لها طلحة والزبير ضرورة معالجة الموقف ، وأنه لا علاج الا بوجودها فى الصورة ، تأمر بالقبض على قتلة عثمان ليصفوا الامر لعلي بن أبي طالب ولتنزل على رغبة معاوية بن أبي سفيان فتجمع ـ بهذا الامر ـ بين الطرفين المتنازعين ··

كان هذا هو الهدف ، ولكن المجرمين الذين تلوثت أيديهم بدم عثمان خافوا على أنفسهم واتفقوا على مؤامرة فى الظلام هي السطو على المعسكرين في وقت واحد بعدما أعلن الجميع قبولهم للصلح واستراحت قلوبهم اليه ، فاختلط الحابل بالنابل ، واشتبهت الامور حتى ظن كل من الفريقين بصاحبه شرا ، وخرج الامر من يد الحكمة وفشل الصلح ، وفوجئت أم المؤمنين بمجيء « كعب بن الاسور » وهو يقول : « أدركي فقد أبى القوم الا القتال لعل الله يصلح بك الامر » فركبت وألبسوا هودجها الأدراع (٣) ·

ولكن هيهات أن يوجد العقل فى الثورات ، وأن تتبين الرؤية في الظلام ،

---

(١) كتاب الكامل ج ٣ ص ١٣١
(٢) نفس المرجع والصحيفة
(٣) الكامل ج ٣ ص ١٢٤

كيف صارت أم المؤمنين طرفا فى النزاع ؟

ان التي استنجد بها الناس لتفض النزاع ، وتقضي على أسباب الفرقة ، وجدت نفسها ـ فجأة ـ دون أن تدرى ، طرفا فى القتال ، وانتشر بين الناس أن أم المؤمنين وقفت تقاتل عليا وحزبه . ومن الغريب أن الذين التفوا حولها هم الذين خرجت للقبض عليهم ، وتنفيذ القصاص فيهم ـ واستطاعوا أن يجعلوا من أنفسهم مدافعين عن أم المؤمنين .

وهكذا صورت المعركة ، صورها تتابع الحوادث ، وغموض الموقف ، واستغلال قتلة عثمان وجود أم المؤمنين فى المعركة ولذلك استشعرت أم المؤمنين ان اسمها استغل فى اشعال النار ، وتأجيج الخصومة فقالت هذه العبارة : « والله لو وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين عاما » (٢) .

وهذا تصوير لحقيقة موقف السيدة عائشة أم المؤمنين من وحي روايات المؤرخين المنصفين ، ومن وحي مقامها ومركزها بصفتها أم المؤمنين جميعا ومعها نخبة من خلاصة أصحاب رسول الله الذين بشرهم بالجنة ومات وهو عنهم راض .

فعسانا نكون قد وضعنا الامور في نصابها وأعطينا الحقيقة التاريخية حظها من العناية وحقها من التقدير والتقرير ، والله المرشد الى الصواب واهب الرضا .

دكتور ابراهيم شعوط
أستاذ التاريخ الاسلامي
بجامعة الملك عبد العزيز
بمكة المكرمة

---

(٢) نفس المرجع ص ١٣٠